لماذا هذه السلسلة

من منطلق الالتزام بالمسئولية الاجتماعية الملقاة على عاتق المشتغلين بالعلم عامة، وبالعلوم الاجتماعية بوجه خاص رأينا أن نقدم هذه السلسلة من المؤلفات فى موضوعات علم النفس المختلفة. ومن المنطلق ذاته اخترنا لها الاسم الدال على توجُّهها الرئيسى، «علم النفس فى حياتنا الاجتماعية»؛ ذلك أنها تهدف أساسًا إلى إثراء حياتنا الاجتماعية بالمعنى الخاص (حيث التطبيقات المحددة فى مجالات اجتماعية بعينها)، وبالمعنى العام (حيث إتاحة المزيد من المعارف العلمية الحديثة حول سلوكيات البشر لينهل منها الفكر الشائع فى مجتمعنا).

وإحقاقًا للحق فقد تولدت فكرة إصدار هذه السلسلة فى ثنايا حوار كان يجمع بين الوضوح والهدوء والحسم، جرى أولا بينى وبين الصديق العزيز الأستاذ الدكتور جابر عصفور. وكنت أحاول الاستئناس برأيه فى نشر مجموعة من دراساتى العلمية لها من الصفات ما يجعلها وسَطًا بين العام والخاص، قراءة واستيعاباً، فما لبث الدكتور عصفور أن أشار بأن أعهد بأمانة النشر إلى الناشر المرموق الأستاذ محمد رشاد، صاحب «الدار المصرية اللبنانية»، ثم بادر بالسعى الحثيث فى عقد آصرة علاقة متميزة بينى وبين الأستاذ رشاد قوامها التسليم مسبَّقا بالتقدير والإعزاز المتبادلين. والتقيت بالأستاذ رشاد فأسعدنى اللقاء سواء على المستوى الإنسانى أو على المستوى العملى فى تحركه نحو الإنجاز المتميز، لم يكن فى مخططى عند فاتحة الحديث سوى نشر كتاب واحد، فإذا بالرجل يأخذ زمام المبادرة فيطرح للنقاش اقتراحا بأن يكون هذا الكتاب فاتحة تعاون بيننا لنشر سلسلة من الكتب فى مجال العلوم النفسية الحديثة. ولقى الاقتراح عندى ترحيبا ورجاء بالتوفيق. واقتضى ذلك إعادة النظر فى البناء الداخلى للكتاب الذى أثار هذا التسلسل الخصب من اللقاءات والمناقشات والمقترحات. وكان جوهر السؤال المطروح أمامى فى هذا الصدد هو: هل يُنشر الكتاب بتصميمه الأساسى الذى

وضعتُه له منذ شغلنى أمره؟ ولم أجد الإجابة ميسورة عندما بدأت الدخول فى هذا المنعطف من التفكير، وكان السبب الرئيسى لهذا العُسْر يتمثل فى الطبيعة الخاصة للكتاب، وما فرضته هذه الطبيعة الخاصة علىَّ من ضرورة العناية بالنظر فى عدد من المفاضلات بين محاسن الإبقاء على التصميم الأصلى ومخاطره.

كان التصميم الأصلى يقضى بأن يضم الكتاب بين دفتيه حوالى ثلاثين فصلا، تتوزع موضوعاتها بين ستة أبواب كبرى فى علم النفس وحوله. وقد سبق لى أن نشرت هذه الفصول جميعا كدراسات متفرقة (فى دوريات متعددة)، وكان بعض هذه الدراسات نظريا والبعض الآخر عمليا، وقد امتدت تواريخ نشرها على مدى أكثر من خمسين عاما (من ١٩٤٦ إلى ١٩٩٨) هى عمر اشتغالى بعلم النفس دراسة وتدريسا وتطبيقا، كان هذا هو التصميم الأساسى للكتاب فى صورته المبكرة؛ وكان ببنيته هذه يحمل إلى القراء عددا من الرسائل؛ بدءًا من دعوتهم إلى إطلالة على مساحات من الآفاق الرحبة لمباحث علم النفس وتطبيقاته، وانتهاء إلى حثّهم (كرأى عام ورأى خاص) على الاستزادة ما أمكن من ترسيخ دعائم هذا العلم وحسن توظيفه فى مجتمعنا المصرى خاصة والعربى عامة. وبين نقطتى البدء والانتهاء كان تصميم الكتاب يحمل رسائل أخرى، فى مقدمتها رسالة ضمنية موجهة إلى من يهمه أمر التاريخ للاشتغال بالفكر العلمى، والفكر العلمى الاجتماعى بوجه خاص، كيف وقع هذا الاشتغال لرجل كرَّس حياته فى هذا السبيل؛ كيف كان المسار؟ وما الذى حكم توجهاته؟ وماذا تحكم فى منعطفاته؟ هكذا كان التصميم الأصلى للكتاب، وتلك كانت مضامين الرسائل التى رجوت أن يحملها إلى القراء.

وعندما أعدتُ النظر فى الأمر بعد ما كان من لقاءات ومناقشات وجدتُنى أمام منظور جديد يحفظ على التصميم الجوهر ويضحّى بالشكل؛ فمضمون الكتاب باق كما هو ولكن فى صورة جديدة، فبدلا من كتاب واحد ضخم يقع فى ستة أبواب، يتوزع هذا الكيان بين أربعة كتب ذات أحجام وسط وانتهى بى الأمر إلى ارتضاء هذه الصورة الأخيرة لأسباب عملية، ليس أقلَّها التيسير على القارىء

بشتى معانى التيسير. ثم إن هذه الكتب الأربعة سوف تكون أمام القارىء بمثابة عينة واضحة الدلالة على نوع الكتب التالية التى يمكنه أن يتوقع صدورها فى إطار سلسلة «علم النفس فى حياتنا الاجتماعية» كما نخطط لها.

هكذا فى كلمات موجزة وأمينة يسعدنى أن أقدم للقارىء قصة هذه السلسلة من الكتب، كيف بدأت وكيف تبلورت فى الطريق إلى التنفيذ. وقد أثبتُّ لأصحاب الفضل فضلهم فى هذا الشأن. راجيا التوفيق لنا جميعا فيما التقينا حوله.

مصطفى سويف

يونية ١٩٩٩

obeikandl.com

obeikandl.com

تصدير الكتاب الأول

أما بعد فيسعدنى أن أقدّم الكتاب الأول فى سلسلة «علم النفس فى حياتنا الاجتماعية».

وهو بعنوان: «علم النفس: دراسات فى فلسفته، ونظرات فى حاضره ومستقبله ككيان اجتماعى». ويضم بابين؛ الأول فى فلسفة علم النفس، والثانى فى حاضره ومستقبله ككيان ثقافى/ أكاديمى له وظائف بعينها فى حياتنا الاجتماعية.

أما عن الباب الأول فيضم أربعة فصول تدور كلها حول مشكلات أساسية يرتكز إليها علم النفس الحديث، وهى مشكلات ذات طبيعة فلسفية، بمعنى أنها لا تدخل ضمن تراكم البحوث الميدانية والمعملية التى تكوّن الجسم المحسوس والنامى للعلم، ولكنها مشكلات تمس المبادئ والجذور المعرفية التى يستند إليها هذا العلم. بعبارة أخرى إن علماء النفس عندما ينصرفون إلى أداء دورهم كمتخصصين فى أحد أو بعض فروع علم النفس ينصب جُهدهم على دراسة هذه الظاهرة أو تلك من ظواهر السلوك والخبرة (كالتعلم والكلام) مستخدمين فى إنجاز هذه الدراسة أساليب وأدوات منهجية بعينها، كالتجارب المعملية، والمشاهدات الميدانية، وطرق قياس الوظائف النفسية، وبعض طرق التحليل الرياضى للنتائج. ولكن عندما يتجه اهتمامهم إلى النظر فيما يسمى بالمشكلات الفلسفية للعلم فهم ينظرون فى المبادئ النظرية والمنطقية العامة التى حكمت وتحكم الصورة أو الهيئة العامة التى يقوم بها العلم أمامنا، بدءًا من مفاهيمه الرئيسية التى تتيح للعقل الإمساك بالظواهر النفسية حين نزمع دراستها، إلى قوانينه والكيفية التى تصاغ بها، إلى نظرياته كما تتجسَّد فى أبنية لها خصائص مميّزة، إلى مناحيه أو مقارباته وتوجهاته العامة، فى هذا الإطار تقوم الفصول الأربعة التى يضمها الباب الأول. وجدير بالذكر أن الاشتغال بهذه الموضوعات يقتضى للنهوض به أن يقف المعنىُّ بها وقفة

خاصة تتميز بالإبقاء على قدم داخل علم النفس بينما تبقى القدم الأخرى خارج أسوار هذا العلم. وقد شغلنى هذا المبحثُ بصورة مكثَّفة فى السنوات الأخيرة من العمر.

أما الباب الثانى من هذا المجلد فهو يجمع بين خمسة فصول، تدور كلها حول العلاقة بين علم النفس والمجتمع؛ وهى علاقة ذات أبعاد متعددة، عرضنا لأربعة منها. ففى الفصلين الخامس والسادس عرضنا لمستقبل هذا العلم فى مصر؛ وكنت قد نشرتُ الفصل الخامس فى سنة ١٩٦٣ عندما كان مستوى الاهتمام بعلم النفس كتخصص قائم بذاته ضمن التخصصات الواردة فى التعليم الجامعى لدينا أدنى مما يجب بكثير، فكان واجبا علىَّ أن أنبّه مواطنى إلى ما يفوّته هذا الوضع عليهم من مواكبة للأوضاع العلمية السائدة فى جامعات العالم المتقدم، وما يفُقدهم إياه من فوائد تطبيقية فى شتى جوانب الحياة. ثم نشرتُ الفصل السادس فى سنة ١٩٧٠ وفيه أوضحتُ أن الأحوال الاجتماعية الجامعية لعلمنا تحسَّنت قليلا، ولكن لايزال أمامنا الكثير لننجزه، ومن ثم وجب المضىُّ قدما نحو آفاق أبعد على الصعيدين الأكاديمى والتطبيقى. أما الفصل السابع فكنتُ قدَّمته فى صورة محاضرة عامة ألقيتها فى سنة ١٩٩٠، حاولت فيها أن أعرض لمنجزات علم النفس فى وطننا من منظور ما استطعت أن أسهم به من خطوات فى تحقيق هذه المنجزات، أو بعبارة أخرى واجباتى التى حاولتُ أن أؤديها فى مسيرة علم النفس فى وطننا. وفى الفصلين الثامن والتاسع سوف يجد القارئ نفسَه أمام نقلة جديدة للحديث، رغم الإبقاء عليه فى إطار العلاقة بين العلم والمجتمع؛ فلم يعد الشغل الشاغل لى هو متابعة خطوات علمنا ليحتل مكانته فى إطار التعليم والتطبيق، ولكن انتقل اهتمامى إلى مناقشة قضيتين خطيرتين: أولاهما هى: هل يمكن قيام مدرسة وطنية فى العلم؟ بمعنى قيام مدرسة يسهم فيها أبناء الوطن بإسهامات أصيلة أو مبتكرة تظل مقترنة بهويتهم الوطنية/ الحضارية ونوع جهودهم رغم اتساقها مع جميع مقتضيات الموضوعية التى تميّز الجهد العلمى أينما كان وتجعل منه تراثا تراكميا عالميا؟ وإذا كانت الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب

فما هو سبيلنا إلى تحقيق ذلك؟ هذا عن القضية الأولى. والقضية الثانية تتناول مطلبا آخر هو كفاءة علماء النفس فى أداء واجباتهم كعلماء يبحثون عن الحقيقة وينشرون نتائج بحوثهم بما يجلب لهم الاعتراف من زملاء التخصص محليا وعالميا، الاعتراف بسلامة نتائجهم وقيمتها، وهذا أمر مفروغ منه بالنسبة للعلماء فى أى تخصص وفى أى مكان. ولكن الجديد فى القضية المطروحة هو أن كفاءة العلماء فى دول العالم الثالث تكتسب بُعدا جديدًا يضاف إلى البعد الأكاديمى المتعارف عليه، وهو البُعد الأخلاقى. وتدور الدراسة كلها فى هذا الفصل الأخير حول هذه النقطة، لماذا هذا البُعد الأخلاقى فى حالة علماء العالم النامى بوجه خاص؟ وكيف يكون ذلك؟

هذه هى حدود المجال الذى خصصنا له هذا الكتاب الأول.

وإناً لنرجو له أن يكون مصباحا ينير الطريق لمن يسعى إلى النور.

مصطفى سويف

يونية ١٩٩٩

obeikandl.com